العدد 13A مجلة دراسات في الإنسانيات والعلوم التربوية ايار 2026
No. 13A Journal of Studies in Humanities and Educational Sciences May 2026
Print ISSN 3006-3256 Online ISSN 3006-3264

سياقات لفظة (أمّـة) في القرآن الكريم/ دراسة نصية

م.م. عباس يونس حمزة
جامعة الحمدانية/ كلية التربية للعلوم الإنسانية/ قسم اللغة العربية
الإيميل: abbasyounis@uohamdaniya.edu.iq

الملخص

من المعلوم أنّ معاني الألفاظ (الكلمات) ودلالاتها ترتبط بالسياق الذي تَّردُ فيه، وتعدَّدُ المعاني في المُعجَمات بتعدّد السياق؛ لذا بيّن البحث المعاني الأصلية (المعجمية) للفظة (أُمّـة) والتي اتفق عليها أغلب المعجمات، ومن ثَمّ درسها في السياق أو الاستعمال القرآني، من منظور لساني نصي، وكشف العلاقة بين ثنائية الدلالة والتركيب، وبيان الاتساق والانسجام بين اللفظة الواردة في سياق الآيات المباركة، وسبب اختيار القرآن الكريم ميدانًا للدراسة وخاصة لهذه اللفظة هو تعدد القراءات والمعاني التي قد تُفهم منها، فاللفظة وردت أكثر من (50) مرة في القرآن الكريم بصيغها المختلفة، وأيضًا لسلامة النص القرآني من الخطأ والانتحال، وخدمةً للقرآن العظيم . يتضمن هذا البحث دراسة دلالة لفظة (أُمّة) في السياق القرآني، والعمل على كشف استعمالات النص القرآني لهذه اللفظة، وبيان مواضع ورودها ومعانيها المختلفة باختلاف السياق، يبدأ البحث بمقدمة موجزة عن (السياق) لغةً واصطلاحًا، ومعنى (الأُمّـة) لغة واصطلاحًا، ومن ثَمّ دراسة سياقات اللفظة واستعمالاتها في النص القرآني.

الكلمات المفتاحية: السياق، الدلالة، القرآن الكريم، الدراسة النصية

Contexts of the Term “Ummah” in the Holy Qur’an: A Textual Study

Assistant Lecturer. Abbas Younis Hamza
University of Al-Hamdaniya / College of Education / Department of Arabic Language
Email: abbasyounis@uohamdaniya.edu.iq

Abstract:

It is well known that the meanings and significations of words are closely connected to the context in which they occur, and that the multiplicity of meanings in dictionaries corresponds to the multiplicity of contexts. Accordingly, this study first clarifies the original (lexical) meanings of the word ummah (أُمّة) as agreed upon by most lexicographical sources, and then examines it within its Qurʾanic context and usage from a text-linguistic perspective. The study reveals the relationship between the duality of meaning and structure, and demonstrates the cohesion and coherence between the word as it appears in the context of the noble Qurʾanic verses.

The reason for selecting the Holy Qurʾan as the field of study—particularly for this word—is the multiplicity of readings and meanings that may be understood from it. The word occurs more than fifty (50) times in the Holy Qurʾan in its various forms. In addition, the Qurʾanic text is free from error and interpolation, and this research is undertaken in service of the Glorious Qurʾan. This research includes a study of the semantics of the word ummah in the Qurʾanic context, aiming to uncover the ways in which the Qurʾanic text employs this word, and to clarify the positions of its occurrence and its different meanings as determined by varying contexts. The study begins with a brief introduction to the concept of context linguistically and

technically, as well as the meaning of ummah linguistically and terminologically, and then proceeds to examine the contexts and usages of the word in the Qurʾanic text .

Keywords: Context – Semantics – The Holy Qur'an – Textual Study

ـــ مقدمة:

لا شكَّ أنّ النص القرآني هو المصدر الأول للتشريع والمعارف الإسلامية، وهو مصدر الدراسات اللغوية في بداياتها وإلى الآن، فهو النص المعجز الذي أبهر العرب الفصحاء وأَعْجَزَهم وهم أهل البلاغة والبيان والفصاحة، فهو المركز والمحورُ الذي تدور حوله، والمَعِينُ الذي يغذّي أهل اللغة والدارسين، ولمّا كانت اللغة وسيلَةَ التواصل والتفاهم بين البشر، فلا بُدَّ لهذه الوسيلة أنْ تكون واضحةً وقادرة على بلوغ المُراد وإتمام الغاية، لذا بدأ العلماء قديمًا وإلى يومنا هذا بدراسة اللغة ومستوياتها للوقوف على كنهها، وللوصولِ إلى أفضل طريقة لفهمها وإفهامها لطلابهم، فقسّمُوا ورتّبوا وبوّبوا الموضوعات والمصنفات، ومن هذه التقسيمات علم المعنى أو الدلالة، فهي خلاصة هذه العلوم وغايتها، فالصوت يتركّبُ مع الصوت لتكوين الكلمة، والكلمة تصطف مع أختها لتكوّن الجملة والتركيب لتنتج المعنى أو الدلالة، ليتصوّرها الطرفان -المتكلّم والمتلقي- لا لَبْسَ فيه ولا غموض، فالدِلالةُ غاية اللغة ومرتكزها، والمحور والمرتكز الذي تعتمد عليها اللغة في القيامِ بدورها وتأْدِيةِ دورها المطلوب .

أمّا المُفردة أو اللفظة القرآنية، فقد لقيت اهتمامًا واسعًا من الباحثين والمتخصصين قديمًا وحديثًا، ولا تزال تحظى بالعناية والدرس، ولعلّ اهتمام المفسرين بها أكثر من غيرهم لحاجتهم إلى معرفةِ معناها وأحوالها، فهي الخطوة الأولى نحو فهم النص القرآني، وسَبْر أغوارِهِ ومعرفة كُنهه؛ لذا نجدُ عنايتَهم الخاصّة بها، ومن أبرز التفاسير التي اهتمّت بالجانب اللغويّ والبلاغيّ في القرآنِ الكريم: معاني القرآن لأبي زكريا الفراء (ت207هـ)، مجاز القرآن لأبي عبيدة (ت210هـ)، معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج (ت311هـ)، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري (ت310هـ)، وتفسير الكشاف للزمخشري (ت538هـ)، هذه الكتب تركز على شرح الألفاظ والتراكيب القرآنية، معتمدين على قواعد اللغة العربية، وشواهد من أشعار العرب، وأقوال السلف، أمّا حديثًا فيُعدّ تفسير (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور من أبرز التفاسير في هذا المجال، وتفسير (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل) للشيخ مكارم الشيرازي من التفاسير الحديثة التي اهتمّت ببيان الجانب الموضوعي للنص القرآني، إلى جانب المعجمات وكتب اللغة التي تناولت النص القرآني واستشهدت به كثيرًا، إلى جانب بعض الدراسات الحديثة التي اهتمّت بلغة القرآن الكريم، مثل كتاب (التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن) لعودة خليل أبو عودة .

قام البحث على محورين، الأول في لفظتي (السياق) و(أُمّــة) من حيث اللغة والاصطلاح، مع تسليط الضوء على مجالات الدراسة النصية ومفهومها .

أما المحور الثاني فقد خُصّصَ للجانب التطبيقي، تناول معاني لفظة (أُمّـة) واستعمالاتها في النص القرآني، بالاعتماد على السياق العام للآية المباركة، ثم خاتمة بأهّم النتائج التي توصل إليها البحث، وثبتًا بالمصادر والمراجع .

إنّ هذا البحث يُعدُّ محاولة مخلصة للوقوف على دِلالاتِ هذه اللفْظَة وسياقاتها في القرآن الكريم، ولاسيما دلالة مُصطلح (الأُمّي) الذي يكثرُ الحديث فيه عندَ المتخصّصِين وغير المتخصّصين، فتعدد الفهم، وتعدّدتِ المعاني والدلالات كلاً على قَدْره ومقدار علمه، وكانت محاولتي هذه للوقوف على المعنى والدلالة الأقرب، والله من وراءِ القَصد .

المحور الأول: السياق والأمة في اللغة والاصطلاح:

أولاً: السياق لغةً واصطلاحًا:

1ـ السياق لغةً: يعود معنى (السياق) إلى الأصل (سوق)، يقول ابن فارس (ت395هـ): "السين والواو والقاف أصل واحد، وهو: حدو الشيء، يقال: ساقه يسوقه سوقًا، والسَّيِّقة: ما استيقَ من الدواب" (زكريا، 1979، صفحة ج3/ 117)

وجاء في القاموس المحيط: "ووَلَدَتْ ثلاثَةَ بَنينَ على ساقٍ: مُتتابِعَةً لا جارِيَةَ بينهم" (الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مرتبا ترتيبا ألفبائيا وفق اوائل الحروف، 2008، صفحة 824) .

وبشكل عام يشير معنى السياق إلى الحدو، وهو التتابع والتوالي والجمع والتسلسل، فالسوق هو الجمع ثم التتابع والتوالي .

2ـ السياق اصطلاحًا: أما المعنى الاصطلاحي فهو قريب من المعنى اللغوي، يقول الزمخشري (ت538هـ): "ومن المجاز: وهو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك يُساق الحديث، وهذا الكلام مساقه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه، أي: على سرده" (الزمخشري أ.، 1998، صفحة ج1/ 484) .

والسياقُ عند المتخصّصِين يكونُ على نوعينِ، سياقُ الحالِ أو الموقِفْ وسياقُ النص، يقول تمام حسان: "المقصود بالسياق: التوالي، ومن ثَمّ يُنظر إليه من ناحيتين، أولاهما: توالي العناصر التي يتحقق بها التركيب والسبك، والسياق من هذه الزاوية يسمى (سياق النص). والثانية: توالي الاحداث التي صاحبت الأداء اللغوي وكانت ذات علاقة بالاتصال، ومن هذه الناحية يسمى السياق (سياق الموقف)" (العوادي، 2011، صفحة 19)، ومن تعريفاته أيضًا أنّه "تتابع الكلام وتساوقه وتقاوده، ودلالة السياق هي فهم النص بمراعاة ما قبله وما بعده" (المطيري، 2008، صفحة 64)، والسياق عند المعاصرين هو "بناء كامل من فقرات مترابطة، في علاقته بأي جزء من أجزائه أو تلك الأجزاء التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة. ودائما ما يكون سياق مجموعة من الكلمات وثيق الترابط بحيث يلقي ضوءا لا على معاني الكلمات المفردة فحسب بل على معنى وغاية الفقرة بأكملها" (فتحي، 1986، الصفحات 201-202) .

ويرى آخرون أنّ السياق هو بمعنى القرينة الحالية، فهو عندهما بمعنى واحد (وهبة و المهندس، 1984، صفحة 288) .

ومما سبقَ فالسياقُ بشكلٍ عام هو تتابع الكلامِ ومراعاة ما قبلَ النص وما بَعده والأحداث والحالة التي تصاحب الأداء اللغوي عند المتكلّم، وهذه الأدوات ضرورية للمتلقي لفهم المراد من الخطاب، وللسياق أنواع عديدة لا يسع المقام لذكرها والاتساع فيها (الصافي، 2017، صفحة 30) .

ثانيًا: (أُمّـة) لغةً واصطلاحًا:

1ـ (أُمّـة) لغةً:

عندما نقرأ في المعجمات والموسوعات اللغوية نرى أنّ لفظة (أمّة) تعود إلى الجذر اللغوي (أمم)، وهذا الأصل فيه معاني عديدة، قال الفراهيدي (ت170هـ) صاحب (العين): "اعلم أنّ كلّ شيء يضمُّ إليه سائر ما يليه فإن العرب تُسمِّي ذلك الشَّيء أُمًّا.. فمن ذلك: أمّ الرأس وهو: الدّماغ، ورجلٌ مأموم. والشّجّةُ الآمّةُ: التي تبلغ أمّ الدّماغ" (الفراهيدي، 2003، صفحة ج87/1) ويقول في موضعٍ آخر: " والأُمّة: كلّ قوم في دينهم من أُمّتهم، وكذلك قوله تعالى: **{إنّا وجدنا آباءنا على أمّة وإنّا على آثارهم مقتدون}** [الزخرف:24]، وكذلك قوله تعالى: **{إنّ هذه أُمّتكم أمّة واحدة}** [الأنبياء:92]، أي: دين واحد وكلّ من كان على دينٍ واحدٍ مُخالِفًا لسائر الأديان فهو أمّة على حِدةٍ، وكان إبراهيم عليه السّلام أمّـة... وكلّ قومٍ نُسِبوا إلى نبيٍّ وأضيفوا إليه فهم أمّة...وقد

يجيءُ في بعضِ الكلام أنّ أمّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم هم المسلمون خاصّة، وجاء في بعض الحديث: أنّ أمّته من أُرسل إليه ممن آمن به أو كفر به، فهم أمّته في اسم الأمّة لا في الملّة" (الفراهيدي، 2003، صفحة ج88/1) .

يقول ابن فارس (ت395هـ): "وأمّا الهمزة والميم فأصلٌ واحدٌ، يتفرّع منه أربعة أبواب، وهي الأصل، والمرجِع، والجماعة، والدِّين. وهذه الأربعَة متقاربة، وبعد ذلك أصولٌ ثلاثة، وهي القامة والحِين والقَصْد" (زكريا، 1979، صفحة ج1/ 21)، ويقول أيضًا: "قال أبو عُبيد: الأُمّي في اللغةِ المنسوبُ إلى ما عليه جِبِلّة الناس لا يكتُب، فهو في أنّه لا يكتُبُ على ما وُلِدَ عليه" (زكريا، 1979، صفحة ج1/ 28) .

وجاء في لسانِ العربِ لابن منظور (ت 711هـ): " الأُمُّ، بالفتح: القَصْد. أَمَّهُ يَؤُمُّه أمّاً إذا قَصَدَه... والإِمَّةُ: الحالةُ، والإِمَّةُ والأُمَّةُ: الشَّرْعة والدِّين...والإِمَّةُ: الهَيئة؛ عن اللحياني. والإِمَّةُ أَيضًا: الحالُ والشأْن. وقال ابن الأَعرابي: والإِمّةُ غَضارةُ العَيش والنعْمةُ... والأُمَّةُ: القَرْن من الناس؛ يقال: قد مَضَتْ أُمَمٌ أي قُرُونٌ. وأُمّةُ كل نبي: مَن أُرسِل إليهم من كافر ومؤمن...والأُمَّةُ الرجلُ الجامع للخير. والأُمَّةُ: الحين" (منظور، 1999، الصفحات ج1/ 212-216) .

ويرى الفيروز آبادي أنّ الجذرَ اللغويّ (أمم) فيه أكثر من معنى، منها: "والأُمُّ، وقد تكسَرُ: الوالِدةُ، وامرأةُ الرجُل المُسِنَّةُ، والمَسْكَنُ، وخادِمُ القَوْمِ. ويقال للأَمِّ: الأَمَّةُ والأُمَّهَةُ، ج: أُمَّاتٌ وأُمَّهاتٌ، أو هذه لمَنْ يَعْقِلُ، وأُمَّاتٌ لمَنْ لا يَعْقل. وأُمُّ كُلِّ شيءٍ: أصْلُهُ وعِمادُهُ. وللقَوْمِ: رئيسُهُم، ومن القرآنِ: الفاتِحَةُ، أو كُلُّ آيةٍ مُحكَمَةٍ من آياتِ الشَّرائِعِ والأَحْكامِ والفَرائِضِ، وللنُّجومِ: المَجَرَّةُ، وللرأسِ: الدِّماغُ، أو الجِلدَةُ الرَّقيقةُ التي عليها، وللرُّمْحِ: اللِّواءُ، وللتَّنائِفِ: الفازَةُ، وللبَيْضِ: النَّعامَةُ، وكُلُّ شيءٍ انضمَّتْ إليه أشْياءُ. وأُمُّ القُرى: مكَّةُ؛ لأنَّها تَوَسّطتِ الأرضَ، فيما زَعَموا، أو لأنّها قِبْلَةُ الناسِ يَؤُمُّونَها، أو لأنَّها أعْظَمُ القُرَى شَأنًا" (الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مرتبا ترتيبا ألفبائيا وفق اوائل الحروف، 2008، صفحة 73)

ومما سبق نجدُ أنّ للجذر اللغوي (أمم) معاني عديدة؛ لكنها في معظمها لا تخرج عن المعاني التي حددها اللغويون، وهي: الأصل، والمرجِعُ، والجماعة من الناسِ، والدين أو الشريعة أو الطريقة، والوالدة والمقصد، والذي لا يقرأ ولا يكتب، والحِين وغيرها، وفي رحى هذه المعاني تدور معنى لفظة (أُمَّة) لغةً .

2ـ (أُمّـة) اصطلاحًا:

إنّ المعنَى الاصطلاحي للفظة (أُمّـة) لا يبتعدُ كثيرًا عن معناها اللغوي (المعجمي) فهما متداخلانِ بِشكلٍ كبير، والأُمّـة في اصطلاح العلماء لا تخرج عن معنى الدين والمِلّة والجماعة من الناس الذين يعودون إلى أصل واحد أو مشترك، يرى الأصفهاني (ت 502هـ) أنّ معنى (أُمّـة)" كُلُّ جَمَاعَةٍ يَجْمَعُهُم أَمْرٌ مَا إمّا دِيْنٌ وَاحِدٌ أوْ زَمَانٌ وَاحِدٌ أو مَكانٌ واحِدٌ، سواء كان ذلكَ الأمرُ الجَامِعُ تَسْخِيرًا أو اخْتِيَارًا وجَمْعُهَا أُمَمٌ" (الراغب الأصفهاني، د.ت، صفحة 23) .

والأُمّـةُ عند الكَفوي (ت1094هـ) هي "كل جماعة يجمعها أمر أو دين أو زمان أو مكان واحد، سواء كان الأمر الجامع تسخيرًا أم اختيارا فَهِي أمّة. كل من آمن بنبي فهو أمة الإجابة. وكل من بلغه دعوة النبي فهو أمّة الدعوة" (الكفوي، 1998) .

ومما سبق يبدو أنّ المعنى الاصطلاحي متقاربٌ جدًا ومتداخل مع المعنى اللغوي حتى لا يمكن التمييز بين المعنيين بشكل واضح وصريح، فمتى ما عرّفناها لغةً وجدنا المعنى يشير إلى الاصطلاح، ومتى ما ذكرنا الأصل اللغوي وجدنا أنفسنا أمام المعنى الاصطلاحي، ويبدو أنّ أصعب ما في دراسة لفظة (الأُمّـة) في النص القرآني هو خلو النصّ القرآنِي من أيّ تعريفٍ لمعنى هذه الفظة، وقد أدرك مفسرو القرآن الكريم هذهِ الحقيقة،

وحاولوا معالجَتها بالتأويل - كما سنرى في البحث - لكنّ طريقتهم غير صارمة، واعتمدوا كثيرًا على المعنى اللغوي لهذه اللفظة ومحاولة ربطها بالأحاديث والمرويات، لكن عملهم هذا لم تُزلْ الابهامات والالتباسات جميعها التي تلازم استعمال هذه اللفظة في القرآن الكريم، ومن هنا كانت الدراسة لبيان معنى لفظة (أُمّـة) في السياق القرآني؛ لأن السياق هو السبيل الأسلم للوصول – قدر الإمكان - إلى كشف دلالتها؛ لأنها من ألفاظ (المشترك اللفظي) وقد جاءت بأكثر من معنى وأكثر من دلالة .

ثالثًا: مفهوم الدراسة النصية ومجالها:

تُعنى الدراسة النصية بالنصِّ في المَقامِ الأوّل بِوصْفِهِ وحْدةً لغويّةً ودِلاليةً مُتكاملة، تُدرسُ عن طريقها العلاقات الداخلية بين تراكيبه وألفاظه ومعانيه، وتهدف إلى الكشف عن البنية العميقة للنص، وآليات انسجامه وتماسكه، وكيفية توليد الدلالة من خلال التفاعل بين المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والتداولية، مع مراعاة السياق الذي ورد فيه، يقول تمام حسان: "المعاني الوظيفية التي يعبّر عنها الصيغ الصرفية هي بطبيعتها تتسم بالتعدد والاحتمال، فالمبنى الصرفي الواحد صالح لأن يعبّر عن أكثر من معنى واحد مادام غير متحقق بعلامة ما في سياق ما فإذا تحقق المعنى بعلامة أصبح نصّا في معنى واحد بعينه تحدّده القرائن اللفظية والمعنوية والحالية على السواء" (حسان، 1994، صفحة 163) ، ويتضح من كلام الدكتور تمام حسان أنّ اللفظة (المبنى) لا يحدّد المعنى المراد بدقة لوحده، بل يحتاج إلى قرينة ليتحدد المعنى المراد بدقّة .

والحقيقة أنّ جذور الدراسة النصيّة ممتدة في التراث العربي، ولا سيما في جهود البلاغيين والمفسرين والنحاة، كانت نظرتهم إلى النص نظرة شمولية، كما يظهر في مباحث النظم عند عبد القاهر الجرجاني، وفي الدراسات السياقية عند علماء التفسير واللغة، يقول الجرجاني (ت371هـ): " ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجري مجراها، مما يُفردُ فيه اللَّفْظُ بالنعت والصِّفة، ويُنسبُ فيه الفضلُ والمِزّيَّةُ إليه دون المعنى، غيرُ وصف الكلام بِحُسنِ الدِّلالةِ وتمامِها فيما له كانت دِلالة، ثُمّ تُبرِّجُهَا في صورة هي أبهى وازينُ وآنَقُ وأعجبُ وأحقُّ بأنْ تستولي على هَوَى النفس ... ولا جهةَ لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصحُّ لتأديته، وتختارَ له اللفظ الذي هو أخصُّ به، وأَكْشَفُ عنه وأتمُّ له، وأحرى بأنْ يَكْسِبه نُبْلاً ويُظهر فيه مَزيّةً" (الجرجاني، 1992) .

فالجرجاني وغيره أكّدوا على أهميّة المعنى المراد من اللفظ أو التركيب، وأولوا اهتمامًا خاصًا بمسألة اللفظ والمعنى، وعدّوهما وجهان لعملة واحدة .

تُعدّ الدراسة النصية اليوم منهجًا مهمًا في التحليل، وكشف البنى والمعاني المتعددة في النصوص الأدبية والقرآنية؛ لما توفره من أدوات ومقومات قادرة على استجلاء الدلالة في ضوء البنية والسياق معًا .

ـ المحور الثاني: سياقات لفظة (أُمّـة) واستعمالاتها في النصّ القرآني:

ـ أولاً: الحين أو المدة من الزمن:

قال تعالى: **"{وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ}" [يوسف 45]** .

جاءت الآيةُ المباركةُ في سياقِ الحديثِ في قصّة نبي الله يوسف (عليه السلام) وهو في السجن، حينما رأى الملك رؤيا عجيبة، فطلب من خواصه وأهل العلم بتأويل الأحلام أن يفسروا له رؤياه، لكنهم عجزوا عن ذلك وقالوا هي أضغاث أحلام، عندها تذكّر أحد السجينين (ساقي الملك) وتذكّر نبي الله يوسف (عليه السلام) حين أوّل له رؤياه بصدق عندما كان مسجونًا، فالسياق العام فيه انتقال من النسيان إلى التذكّر، ومن الضيق والسجن إلى الانفتاح وبداية الفرج ليوسف (عليه السلام)، يقول الزمخشري (ت538هـ): "{بَعْدَ أُمّة}: بعد مدّة طويلة؛

وذلك أنه حين استفتى الملك في رؤياه واعضل على الملأ تأويلها، تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه، وطلبه إليه أن يذكره عند الملك" (الزمخشري ا.، 1998، صفحة ج291/3) .

ويقول بن عاشور: "معنى ((بعد أمة)) بعد زمنٍ مضى على نسيانه وصاية يوسف –عليه السّلام-. والأمة: أُطلقت هنا على المدة الطويلة، وأصل إطلاق الأمة على المدة الطويلة هو أنها زمن ينقرض في مثله جيل، والجيل يسمى أمة، كما في قوله تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس} على قول من حمله على الصحابة. وإطلاقه في هذه الآية مبالغة في زمن نسيان الساقي" (ابن عاشور، 1984، صفحة ج283/12) .

وجاءَ في (الميزان في تفسير القرآن) "الأمُة الجماعة التي تقصد لشأن ويغلب استعمالها في الإنسان، والمراد بها ههنا الجماعة من السنين وهي المدة التي نسي فيها هذا القائل وهو ساقي الملك ان يذكر يوسف عند ربه وقد سأله يوسف ذلك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبثَ يوسف في السجن بضع سنين" (الطباطبائي، 1997، صفحة ج191/11) .

قد يكون في كلام صاحب الميزان ملامحَ من التطور الدلالي للفظة (أُمّـة) فهو يرى - كما عند أصحاب المعجمات اللغوية – أنّها تستعمل مع الجماعة من الناس في الغالب، إلاّ النص القرآني استعمله في معنى (مجموعة من السنين) وبذلك نشهد تطورا دلاليا واضحًا في الاستعمال القرآني لهذه اللفظة، والذي ساهم في هذا التطور الدلالي السياقُ القرآني ومجموعةُ القرائنِ التي تحيط اللفظةَ بشكل عام في النص .

ويبدو مما سبقَ أنّ المراد من لفظة (أُمّـة) في الآية الكريمة المدة الطويلة من الزمن، فالتركيب يوحي يطول المدة والنسيان العميق، ثمّ اليقظة المفاجئة والتذكّر، وجملة **"{أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ}"** تدلّ على الثقة الكبيرة واليقين نتيجة لتجربة سابقة، وصيغة **"{فَأَرْسِلُونِ}"** الطلبية فيها بداية الوساطة والتواصل بين الملك ويوسف (عليه السلام)، وفي الآية مقابلة دلالية واضحة بين النسيانِ والتذكّر، والجهلِ والعلم، وتبرزُ قيمة الذكر بعد الغفلة والنسيان، ودور العلم وأهميّته في تفريج الكرب والخلاص من المِحن، والدلالة النصية العامة للآية المباركة تطهِرُ مُنعطفًا في السرد القرآني، فهي الرابطة أو الجسر ما بين محنة يوسف (عليه السلام) وكُربته في السجن ومكانته اللاحقة عند الملك، فالعِلمُ (تأويل الأحلام) سبب الرفعة والمكانة المرموقة، وأنّ الأقدار تجري بتدبير إلهي دقيق ومنظّم، فهذا التأخير في التذكّر والنسيان كان تمهيدًا للفرج في الوقت المناسب الذي اختارته العناية الإلهية .

ـ ثانيًا: الرجل المنفرد الذي لا نظير له:

قد يُطلق هذا المعنى على الشخص الواحد (المفرد) إذا أتى هذا الشخص بعملٍ يساوي عمل جمع من الناس، أو إذا كان قدوة للناس، و ذا شخصية متكاملة، ومنه قوله تعالى: **"{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}"[النحل:120] .**

كان نبيّ الله إبراهيم (عليه السلام) قدوة لغيره وصاحب شخصية متكاملة ومصداق للعبد الشكور المؤمن بالله، والموحّد الحنيف الأواب، يقول صاحب (الكشّاف): "{كانَ أُمّةً} فيه وجهان: أحدهما: أنه كان وحده أمّة من الأُمم؛ لكماله في جميع صفات الخير... وعن مجاهد: كان مؤمنًا وحده والناس كلّهم كفار. والثاني: أن يكون أمّة بمعنى: مأموم، أي: يؤمّه الناس ليأخذوا منه الخير، أو بمعنى: مؤتمر به كالرحلة والنخبة، وما أشبه ذلك مما جاء من فعلة بمعنى: مفعول" (الزمخشري، 1998، صفحة ج3/ 482) .

قال ابن كثير (ت774هـ): "يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الخلفاء، ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين، ومن اليهودية والنصرانية، فقال: {إنّ إبراهيمَ كان أُمّة قانتًا لله حنيفًا} فأما الأمّة: فهو الإمام الذي يقتدى به" (ابن كثير الدمشقي ا.، 2000، صفحة ج8/ 365) .

تدل هذه اللفظة أنّ إبراهيم (عليه السلام) أمّةٌ بذاته، فشخصيته وشعاعه تعادل شخصيّة أُمّة بكاملها، فهو قائد وقدوة حسنة ومعلم كبير للإنسانية؛ لأنّ (أُمّة) اسم مفعول يطلق على الذي تقتدي به الناس وتنصاع له، ولمّا كان (عليه السلام) موحّدًا في مُحيط خالٍ من التوحيد، فالجميع كانوا يخوضون في وحل الشرك وعبادة الأصنام، فهو والحال هذه (أُمّـة) في قبال (أُمّـة) المشركين الذين حوله، وتدلّ أيضًا أنّ إبراهيم (عليه السلام) هو منبع أُمّـة تأتي بعده، فهو والد الأنبياء وأبو المسلمين والموحدين، وهؤلاء أُمّـة جاءت وتكونت منه وبسببه . (مكارم الشيرازي، 1421هـ، صفحة ج359/8) .

إنّ صفة (أُمّـة) الذي أُطلق على نبي الله إبراهيم (عليه السلام) لم يكن مفهومًا ومتداولاً عند عامة الناس، لذا وجدنا تدخّلا من المفسرين والمختصين لشرحه وإيضاحه للناس، لأنّ معناها في أصل الوضع هو للدلالة على الجماعة من الناس، فكيف يمكن أنْ يكون الفرد بمعنى الجماعة؟! استعمل النص القرآني معنى (أُمّـة) للفرد للدلالة على عظمة هذا الشخص وتأثيره الكبير وعمله الجبار حتى كان كالجماعة من الناس من حيث قوة التأثير والعمل، وبدأت الآية ب (إنَّ) للتوكيد التي تفيد تثبيت الحكم ودفع الشك، وهذا التوكيد مناسب لمقام القدوة، واسم (إبراهيم) اسم علم مفرد لكنّهُ موصوفٌ بالجماعة، وبه انتقلت الدلالة من المفرد إلى الجمع، و(كان) فعلٌ ماضٍ ناقص يفيد الثبوت والاستمرار أيضا لا الزمن الماضي فقط، واختُتمت الآية بنفي الشركِ عن إبراهيم (عليه السلام)، وهناك علاقة تقابل ما بين (حنيفًا) و (المشركين)، فالآية جاءت في سياق الرد على المشركين وتثبيت عقيدة التوحيد في مقابل عقيدة الشرك، وتُقدّمُ إبراهيم (عليه السلام) انموذجًا وقدوة لإبطال دعوى المشركين بالانتساب إليه، وتمهّدُ للآيات اللاحقة التي تُبرزُ نِعَمَ الله عليه وعلى المؤمنين .

ويبدو أنّ هذا المعنى مما أضافه النص القرآني للفظة (أُمّـة) وهي من الاستعمالات الفريدة التي اختصّ به القرآن الكريم دون غيره، مما وسّع دلالة اللفظة وأعطاها بُعدًا جديدًا وزخمًا معنويًا في الاستعمال .

ـ ثالثًا: الدين أو المِلّة أو الجماعة من الناس:

تكررت لفظة (أمّة) في الآيات القرآنية المباركة أكثر من (50) مرة وهي تتحدّث عن الدين والشريعة أو الجماعة من الناس، ومنها قوله تعالى: **"{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}" [المائدة:48] .**

يقول صاحب الكشّاف في معنى قوله تعالى: "{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} جماعة متفقة على شريعة واحدة، أو ذوي أمّة واحدة أي: دين واحد لا اختلاف فيه" (الزمخشري، 1998، صفحة ج2/ 247).

وجاء في (التفسير البسيط) في معنى قوله تعالى: "{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} قال الحسن: لو شاء لجمعكم على الحق. وقال الكلبي: ولو شاء (الله) لجعلكم أمّة واحدة على أمرٍ واحد ملة الإسلام" (الواحدي، 1430هـ، صفحة ج412/7) .

ويرى صاحب (روح المعاني) أنّ معنى قوله تعالى: "{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} أي جماعة متفقة على دين واحد في جميع الأعصر، أو ذي ملة واحدة من غير اختلاف بينكم في وقت من الأوقات في شيء من الأحكام الدينية ولا نسخ ولا تحويل" (الآلوسي البغدادي، صفحة ج154/6) .

ويذكر صاحب (التحرير والتنوير) أنّ الأمّة هم "الجماعة العظيمة الذين دينهم ومعتقدهم واحد، هذا بحسب اصطلاح الشّريعة. وأصل الأمّة في كلام العرب: القوم الكثيرون الذين يرجعون إلى نسبٍ واحد ويتكلمون

بلسان واحد، أي لو شاء لخلقكم على تقدير واحد، كما خلق أنواع الحيوان غير قابلة للزّيادة ولا للتطوّر من أنفسها" (ابن عاشور، 1984، صفحة ج224/6) .

الواضح أنّ السياق القرآني قد استعمل لفظة (أُمّـة) بمعنى قريب من معناه اللغوي الموضوع في أصل الاستعمال، فالأُمّة هي الجماعة من الناس الذين هُم على دين واحد أو شريعة واحدة أو من أصل واحد، فعندما ينطبق هذا المعنى على جماعة من الناس أطلق عليهم اصطلاح (أُمّـة) .

ـــ قد تكون الجماعة المذكورة تتفق في الدين أو النسب أو المعتقد كما وجدنا في الآيات السابقة، أي أنّ المقصود بالأمُـة جماعة مخصوصة لها ميزاتها ومشتركاتها فأطلق القرآن الكريم عليهم مصطلح (أُمّـة)، ويمكن أنّ نسمّيهم (الأُمّـة الخاصّة)، وقد يطلق هذا المصطلح على جماعة من الناس لا يشتركون في ولا يجمعهم نسب أو دين أو معتقد، وهؤلاء من الممكن أنْ نُسمّيهم (الأُمّـة العامّة) ومنه قوله تعالى: **"{وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ}" [القصص: 23] .**

يرى الآلوسي أنّ "{أمّـةً منَ الناس} أي جماعة كثيرة مختلفي الأصناف، ويشعر بالقيد الأول التنوين، وبالثاني من الناس لشموله للأصناف المختلفة وهي فائدة ذكره، وقيل فائدته تحقير أولئك الجماعة" (الآلوسي البغدادي، صفحة ج59/20) .

والسياق العام للآية الكريمة ـ والآيات السابقة واللاحقة ـ يدل على أنّ نبي الله موسى (عليه السلام) كان غريبًا في مَدْيَنَ ولا يعرف أحدًا فيها، إلا أنّ تجمّع الناس حول الآبار ومشاهدته لـ (امرأتين تذودان) جعلاه يتجه نحو البئر ويساعدهما على سقي الأنعام مع أنه لا يعرفهما ولا تعرفانه، فالسياق العام للآيات الكريمة تدل على أنّ لفظة (أُمّـة) في الآية الكريمة تدل على الأُمّـة العامة لا الخاصّة؛ كونه غريبًا في المدينة ولا يعرف أحدا، والناس كلهم عنده سواء من هذه الناحية، ولفظة (أُمّـة) جاءت بصيغة التنكير للدلالة على التعميم، وفي الآية المباركة نوعٌ من التقابل ما بينها والآية السابقة (الآية 120 من سورة النحل) فلفظة (أُمّة) هنا تدل على وحدة عقدية وتشريعية، وهناك فرد بوزن أُمّة .

ـ رابعًا: الشخص المنسوب إلى الأُم أو الأُمّـة:

وردت بعض الألفاظ في القرآن الكريم نسبة إلى (الأُمّـة) منها (الأُمّـي، والأُمّيين)، ومن معاني (الأُمّـي) الشخص غير المتعلم الذي لا يقرأ ولا يكتب، وقد جاءت في عدد غير قليل من الآيات القرآنية، وكانت –في الغالب- في سياق الحديث عن نبينا الكريم محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وعندما نبحث في التفاسير نرى تبايُنًا في آراء المفسرين، فمنهم من يراها بمعنى غير المتعلم، ومنهم من يرى أنّ معناها الذي ينتمي إلى مكّة، أي فيها معنى النسبة إلى مكة أُم القرى ربطًا بآيات أُخرى، ومن هذه الآيات قوله تعالى: **"{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}" [الأعراف: 157].**

قال ابن كثير في معنى "{النبيّ الأُمي}: وهذه صفة محمد، صلى الله عليه وسلم، في كتب الأنبياء بشروا أممهم ببعثه، وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم، يعرفها علماؤهم وأحبارهم" (ابن كثير الدمشقي ا.، 2000، صفحة ج6/ 407) .

ويرى القرطبي (ت671هـ) أنّ (الأُمـي) "هو منسوب إلى الأُمّـة الأُمّية، التي هي على أصل ولادتها، لم تتعلّم الكتابة ولا قراءتها؛ قاله ابن العربي. وقال ابن عباس رضي الله عنه: كان نبيّكم صلى الله عليه وسلم أُمّيا لا

يكتب ولا يقرأ ولا يحسُب؛ قال الله تعالى: {ومَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ ولَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ}. ورُوي في الصحيح عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: ''إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيّة لا نكتب ولا نحسُب'' الحديث. وقيل: نسب النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى مَكّة أمّ القرى؛ ذكره النحاس" (القرطبي، 1935، الصفحات ج7/ 298-299) .

وجاء في (روح المعاني) أنّ (الأُمّـي): "أي الذي لا يكتب ولا يقرأ، وهو على ما قال الزجاج نسبة إلى أمة العرب لأن الغالب عليهم ذلك. وروى الشيخان وغيرهما عن ابن عمر قال: قال ((رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب)) أو إلى أم القرى لأنّ أهلها كانوا كذلك، ونسب ذلك إلى الباقر رضي الله تعالى عنه أو إلى أمه كأنه على الحالة التي ولدته امه عليها، ووصف عليه الصلاة والسلام بذلك تنبيها على أن كمال علمه مع حاله إحدى معجزاته" (الآلوسي البغدادي، صفحة ج9/ 79) .

ويرى ابن عاشور أنّ معنى (الأُمّـي) فيه أكثر من رأي، فهو "الذي لا يعرف الكتابة والقراءة، قيل هو منسوب إلى الأم أي هو أشبه بأمه منه بأبيه؛ لأنّ النساءَ في العرب ما كُنّ يعرفن القراءة والكتابة، وما تعلمْنها إلا في الإسلام ... وقيل: منسوبٌ إلى الأُمّـة أي الذي حاله حال معظم الأُمّـة، أي الأُمّـة المعهودة عندهم وهي العربية، وكانوا في الجاهلية لا يعرف منهم القراءة والكتابة إلا النادر منهم، ولذلك يصفهم أهلُ الكتاب بالأُمّيين" (ابن عاشور، 1984، صفحة ج9/ 133) .

ولا شكّ أنّ (الأُمّية) وصفٌ خصّ الله به من رسله نبيّنا الكريم محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) "اتمامًا للإعجاز العلمي والعقلي الذي أيده الله به، فجعل الأمية وصفا ذاتيا له ليتم بها وصفه الذاتي وهو الرسالة، ليظهر أن كماله النفساني كمالٌ لدُنّي الهي، لا واسطة فيه للأسباب المتعارفة للكمالات، وبذلك كانت الأمية وصف كمال فيه، مع انها في غيره وصف نقصان" (ابن عاشور، 1984، صفحة ج133/9) .

ويلاحظ من قول ابن عاشور أنّ صفة (الأُمّي) أو (الأُمّيين) التي وردت في النص القرآني جاءت مرة لتدلّ على المدح والثناء على نبيّه الكريم؛ ولبيان الإعجاز النبوي قبالة أهل الكتاب (اليهود والنصارى) والمشركين، وجاءت لفظة (الأُميين) بصيغة الجمع صفةً للعرب، وقد أطلقها أهل الكتاب (اليهود والنصارى) عليهم؛ لأنّهم ليسوا أهل كتاب أو دين سماويّ، ويبدو أنّ غايتهم السخرية والانتقاص من نبينا الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) خاصة، ومن العرب بشكل عام؛ لأنّهم يعدّون أنفسهم من أهل العلم والمعرفة ولا يمكن أن يتساووا مع الجهلة والأُميين من العرب؛ فكانوا يصفون العرب بـ (الأُمّيين) للدلالة على السخرية والانتقاص، ومن ذلك قولهم: **"{وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}" [آل عمران: 75] .**

يقول الزمخشري (ت538هـ) في معنى هذه الآية: "أي: لا يتطرق علينا عتاب وذم في شأن الأميين، يعنون الذين ليسوا من أهل الكتاب، وما فعلنا بهم من حبس أموالهم والإضرار بهم، لأنهم ليسوا على ديننا، وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم ويقولون: لم يجعل لهم في كتابنا حرمة، وقيل: بايع اليهود رجالاً من قريش، فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا: ليس لكم علينا حق حيث تركتم دينكم، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم" (الزمخشري، 1998، صفحة ج571/1) .

ويرى صاحب (مجمع البيان في تفسير القرآن) أنّ سبب إطلاق أهل الكتاب (اليهود والنصارى) وصف (الأميين) على العرب والمسلمين "لعدم كونهم من أهل الكتاب أو لكونهم من مكة وهي أمّ القرى" (الطبرسي، 2005، صفحة ج263/2)، وذكر ابن عاشور أنّهم "أرادوا بالأميين من ليسوا من أهل الكتاب في القديم" (ابن عاشور، 1984، صفحة ج3/ 287).

وجاء في (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل) أنّ الآية بيّنت "منطقهم في أكل أموال الناس، وهو قولهم بأنّ (لأهل الكتاب) أفضلية على (الأُميّين) أي على المشركين والعرب الذين كانوا أُمّيين غالبًا أو أن المقصود كلّ من ليس له نصيب من قراءة التوراة والإنجيل" (مكارم الشيرازي، 1421هـ، صفحة ج2/ 560) .

بدأت الآية الكريمة بـ(اسم موصول) لربط الآية بما قبلها، فهو بدلٌ أو صفة لمن سبقت الإشارة إليهم في الآية السابقة (156) .

في الآية المباركة تتابع للأفعال المضارعة (يتبعون، يأمرهم، ينهاهم، يحل، يحرم، يضع) وهذه كلها تفيد الاستمرارية والتجدد والتتابع، وجاء المقطع **"{الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ}"** ليدل على تحقق علمي لا مجرد ادعاء، وهذه تفيد الحيازة النصية لا الإخبار فقط، الواضح أنّ أهل الكتاب (اليهود والنصارى) كانوا يرون أنفسهم أهل علم ومعرفة؛ لأنهم أهل دين وكتاب مكتوب منزّل، أما العرب (المشركين) أُمّيّوُن، ووصفهم العرب بالأُمّية كان انتقاصًا وهزوًا، فالأُمّـي بهذا المعنى يطلق على مَن لا دين ولا نبيّ ولا كتاب له، فحَريٌّ بهذه الجماعة - من وجهة نظر اليهود- أن يوصَفوا بالأُمّيين، مع أنّ من المعلوم أنّ غالبية الناس من العرب المشركين وعبدة الأوثان وغيرهم من اليهود والنصارى كانوا لا يكتبون ولا يقرؤون؛ بل اقتصرت الكتابة على فئة قليلة ونادرة، وهذا النسبة لا تختلف كثيرا ما بين العرب وغيرهم، إلاّ أنّ أهل الكتاب اتخذوا هذا الوصف لغرض الانتقاص والسخرية من العرب في ذلك الوقت، فكان الردّ القرآني بإلزامهم الحجة من كتبهم، وأكدّ القرآن الكريم أنّ الإيمان بالنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلّم) ليس قطيعة مع ما مكتوب عندهم وفي تراثهم، بل هو امتداد مصحّح له، وهو المسار الطبيعي لتشريعات السماء .

ومن اللطيف أنّ القرآن الكريم استعمل هذا الوصف (الأُمّي) و(الأُمّيين) في السياق القرآني للمدح والثناء على رسوله الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) نكايةً باليهود والنصارى - اليهود خاصة – إذ يقول عزّ وجلّ: **"{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}" [الجمعة: 2] .**

فالآية الكريمة تؤكد أن الله تعالى بعثَ رسولاً إلى الأُمّيين من الأُمّيين أنفسهم، يتلوا عليهم الآيات، ويعلمهم الكتاب والحكمة والقراءة ليخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم والمعرفة، يقول الزمخشري (ت 538هـ): "ومعنى {بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُم} بعث رجلاً أميّا في قوم أميين، كما جاء في حديث شعياء: أني ابعث أعمى في عميان، وأميّاً في أميين (1592)... يقرؤها عليهم مع كونه أُمّيًا مثلهم لم تعهد منه قراءة ولم يعرف بتعلم، وقراءة أمّي بغير تعلم آية بينة" (الزمخشري، 1998، صفحة ج110/6) .

ولا شكَّ أنّ أهل الكتاب (اليهود والنصارى) كانوا يعلمون صفات خاتم الأنبياء والمرسلين، ومن صفاته أنه (عليه وعلى آله الصلاة والسلام) أنّهُ أُمّي، وهذه الأُمّية هي صفة مدح له وإعجاز، وعلامة دامغة على نبوته ورسالته إلاّ أنّ الحقد الأعمى والإصرار على الكفر بالأنبياء والمرسلين (كعادة اليهود) جعلهم يشوّهون الحقائق ويغيرونها ليدفعوا الناس عن الإيمان بالنبي الأُمّي، فعمِلوا على تكذيبه وابعاد الناس عنه، إلاّ أنّ الإشارات الواردة في (التوراة) عن اسم ومكان رسولنا الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) من الحقيقة ما لا تقبل الشك، منه ما جاء "في الجزء الثالث من السفر الأول من التوراة، مخاطبًا لإبراهيم الخليل، عليه السلام: '' وأما في إسماعيل فقد قبلت دعاءك، ها قد باركت فيه، وأُثمِّره وأكثِّره جدًا جدًا'' ذلك قوله: ''وليشماعيل شمعتيخا هني بيراختي أوتووهربيثى أوتو بمأدماد''.؟؟ فهذه الكلمة (بمأدماد) إذا حسبنا عدد حروفها بالجمل، كان اثنين وتسعين، وذلك عدد حروف اسم محمد فإنه أيضًا اثنين وتسعين. وإنما جُعل ذلك في هذا الموضع ملغزًا، لأنه لو صرح به، لبدلته اليهود، او أسقطته من التوراة، كما عملوا في غير ذلك" (السموأل، 2006، صفحة 54) .

ومما سبق نجد أنّ السياق القرآني استعمل لفظتي (الأُمّي) و (الأُمّيين) بمعناه العام والمتداول عند عامة الناس، أي الجهل بالقراءة والكتابة، وهذا الجهل كان صفة عامة عند الناس، عند العرب وغيرهم، فلا يوجد دليل أو مُؤشّرٌ أنّ أغلب أهل الكتاب في ذلك الزمان كانوا من المتعلمين أو القادرين على القراءة والكتابة، بل اقتصر التعليم على المراكز الدينية، وأصحاب التجارة والمعاملات، وبعض الناس الميسورين وعددهم قليل جدا بل ونادر بالمقارنة مع عدد غير المتعلمين، أمّا أهل الكتاب (اليهود والنصارى) فكان قصدهم وغايتهم عند إطلاق لفظتي (الأُمّـي) و (الأُمّيين) على نبيّنا الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) والعرب – وفق السياق القرآني – السخرية والانتقاص؛ ليُظهروا علوَّ كعبهم على غيرهم، ولدفع الناس – من عامة أهل الكتاب - عن الدين الجديد حتى لا يتعرّفَ الناس على الإسلام الذي ينسف أغلب معتقداتهم مما يؤدي إلى خسارة أغلب رجال الدين نفوذهم الديني والاجتماعي، وفقدان مراكزهم التي حصّلوها بخداع عامة الناس وإيهامهم بالباطل .

النص القرآني كان مُسايرًا لقصدية كلّ جهة أو مجموعة، فعندما يكون الكلام عن معجزات نبيّنا الكريم محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وآله وسلم) نجد معنى المدح والثناء، فكانت أُمّيّتُـهُ عليه الصلاة والسلام إعجازًا، ومصدر فخر واعتزاز، لذا كان السياق مرة بأنّهُ (أُمّي) ومرة بأنّهُ مُرسلٌ إلى الأُمّيين، وكلا المعنيين فيهما مدح وثناء .

ولمّا كان الحديث عن نبينا الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) على لسان أهل الكتاب (اليهود والنصارى) وجدنا معنى مغايرًا عن المعنى الأول، ودلّ سياق الاستعمال على السخرية والانتقاص لا المدح والثناء، فكان السياق القرآني كاشفًا ومُعرّيًا لما في نفوسهم من حقد وحسد للدين الجديد ونبيّه الكريم .

الخاتمة وأهمّ النتائج

1ــ جاءت لفظة (أمّـة) في النص القرآني بدلالات متعدّدة، منها متداولة ومعروفة في بيئة ومجتمع عصر ما قبل الإسلام، ومنها ما هو جديد وغير مطروق .

2ــ شهدت لفظة (أُمّـة) في القرآن الكريم تطورًا دلاليّا من الدلالة الجمعية العددية إلى الدلالة القيمية القيادية، ويمثّل النبي إبراهيم (عليه السلام) مصداق وذروة هذا التطور، إذ انتقلت اللفظة من توصيف الجماعة إلى توصيف الفرد المجسّد لمنظومة عقدية وسلوكية متكاملة .

3ــ السياق القرآني يُساير قصدية كلّ جهة أو مجموعة، فعندما يكون الكلام عن معجزات نبيّنا الكريم محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وآله وسلم) نجد معنى المدح والثناء، فكانت أُمّيّتُـهُ عليه الصلاة والسلام إعجازًا، ومصدر فخر واعتزاز، لذا كان السياق مرة بأنّهُ (أُمّي) ومرة بأنّهُ مُرسلٌ إلى الأُمّيين، وكلا المعنيين فيهما مدح وثناء، ولمّا كان الحديث عن نبينا الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) على لسان أهل الكتاب (اليهود والنصارى) وجدنا معنى مغايرًا عن المعنى الأول، ودلّ سياق الاستعمال على السخرية والانتقاص لا المدح والثناء، فكان السياق القرآني كاشفًا ومُعرّيًا لما في نفوسهم من حقد وحسد للدين الجديد ونبيّه .

5ــ لا اتفاق على دلالة لفظة (أُمّـة) بين أغلب المفسرين والدارسين، وفهم النص القرآني وسياقاته تختلف باختلاف عصر وزمان الدارس، إلاّ أنّها لا تبتعد عن بعضها كثيرًا، فالمعاني الغالبة هي (مدة من الزمن، الجماعة من الناس، جماعة من دين أو أصل واحد، غير المتعلم) وغيرها من المعاني .

6ــ إنّ مصطلح (الأُمّـي) قد يُطلق على الجماعة أو الأقوام التي لا رسول أو دين لهم؛ فالأميّون هم الذين بلا رسول أو دين أو معتقد، وأطلقها اليهود والنصارى على العرب في ذلك العصر .

المراجع:

إبراهيم فتحي. (1986). معجم *المصطلحات الأدبية*. صفاقس: التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، د.ط .

أبو القاسم جارالله محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري. (1998). *أساس البلاغة*، تحقيق: محمد باسل عيون السود، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية .

أبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي. (1998). *الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية*، إعداد: د.عدنان درويش ومحمد المصري، المحرر) بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة .

أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي. (1430هـ). *التفسير البسيط*، تحقيق د.محمد بن صالح بن عبدالله الفوزان، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي. (د.ت). *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*. بيروت - لبنان: دار إحياء التراث العربي.

أبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني. (د.ت). *المفردات في غريب القرآن*، تحقيق: محمد سيد كيلاني، بيروت، لبنان: دار المعرفة .

أبي جعفر محمد بن جرير الطبري. (2003). *تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان.

أبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. (1935). *الجامع لأحكام القرآن*، القاهرة: دار الكتب المصرية.

أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي. (2005). *مجمع البيان في تفسير القرآن*، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع.

أحمد بن فارس بن زكريا. (1979). معجم *مقاييس اللغة*، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

أسعد خلف العوادي. (2011). *سياق الحال في كتاب سيبويه دراسة في النحو والدلالة*، عمان: دار الحامد للنشر والتوزيع .

الإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن كثير الدمشقي. (2000) *تفسير القرآن العظيم*، تحقيق: مصطفى السيد محمد وآخرون، القاهرة: مؤسسة قرطبة للطبع والنشر والتوزيع .

الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور. (1984). *تفسير التحرير والتنوير*. الدار التونسية للنشر.

الإمام عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن كثير الدمشقي. (2000). *تفسير القرآن العظيم*، تحقيق: مصطفى السيد محمد وآخرون، القاهرة: قرطبة للطبع والنشر والتوزيع .

الخليل بن أحمد الفراهيدي. (2003). *كتاب العين مرتبا على حروف المعجم*، ترتيب وتحقيق د.عبدالحميد هنداوي، بيروت ، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية .

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي. (1421هـ). *الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل* (منقحة مع إضافات) قم-إيران: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب .

العلامة ابن منظور. (1999). *لسان العرب*، تحقيق: أمين محمد عبدالوهاب ومحمد الصادق العبيدي، بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي.

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي. (1997). *الميزان في تفسير القرآن*، تصحيح وإشراف: الشيخ حسين الأعلمي، بيروت - لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات .

العلامة جارالله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري. (1998). *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل*، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود والشيخ علي محمد معوّض، الرياض: مكتبة العبيكان.

بن يحيى المغربي السموأل. (2006). *غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود*، تحقيق: د.إمام حنفي، القاهرة: دار الآفاق .

تمام حسان. (1994). *اللغة العربية معناها ومبناها*. الدار البيضاء، المغرب: دار الثقافة.

عبدالرحمن عبدالله سرور جرمان المطيري. (2008). *السياق القرآني وأثره في التفسير*.

عبدالقاهر الجرجاني. (1992). *دلائل الإعجاز*، تحقيق: محمود محمد شاكر، القاهرة، جدة، مصر: مطبعة المدني، ودار المدني بجدة .

مجدالدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. (2008). *القاموس المحيط*، راجعه واعتنى به: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، القاهرة: دار الحديث/ القاهرة .

مجدالدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. (2008). *القاموس المحيط، مرتبا ترتيبا ألفبائيا وفق اوائل الحروف*، راجعه واعتنى به: أنس محمد الشامي و زكريا جابر أحمد، القاهرة: دار الحديث .

مجدي وهبة، و كامل المهندس. (1984). *معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب*، بيروت: مكتبة لبنان .

محمد علي الصابوني. (1981). *صفوة التفاسير*، بيروت: دار القرآن الكريم .

ناصيف نصّار. (2006). *مفهوم الأمة في القرآن* .

ندى عبدالأمير الصافي. (2017). *أثر السياق في توجيه المعنى لألفاظ الطبيعة في نهج البلاغة*، كربلاء المقدسة: مؤسسة علوم نهج البلاغة في العتبة الحسينية المقدسة .